شعراء الوطنية

قرأت اليوم آخر كتاب للأستاذ الكبير عبد الرحمن الرافعى وهو كتاب شعراء الوطنية. وقد استرعى انتباهى أن يخلو الكتاب من اسم شاعر حر هو ولى الدين يكن الذى قضى حياته منفيًّا مشردًا، مكافحًا ضد طغيان السلطان عبدالحميد. ولما استقر به المقام فى مصر، أمضى البقية الباقية من حياته مريضًا، ثم مات ضحية الأمراض التى عاناها فى النفى والسجن.

وكان ولى الدين يكن إلى جانب دفاعه عن حريته السياسية، مناضلا فى رفع راية الحرية الفكرية، وقد كان نزّاعًا إلى التجديد فى الشعر. وكان أسلوبه فى الكتابة أسلوبًا قويا يمتاز بالنبض والحرارة والقوة والسهولة. وهو بلا شك يعد فى طليعة المجددين فى الأدب العربى. وقد نشبت بينه وبين المرحوم الشيخ رشيد رضا معركة قلمية عنيفة، ومن عباراته الساخرة التى سارت مجرى الأمثال هذه الكلمة:

إنى أكره شيئين فى اللغة العربية: «أيضًا».. والشيخ

رشيد رضا»!! وكان ذلك منذ أربعين عامًا!

ولما سقط السلطان عبد الحميد بأيدى الثوار فى تركيا نظم شوقى قصيدته الشهيرة:

سل يلدزا ذات القصور هل جاءها نبأ البدور

ورد عليه ولى الدين بقصيدة من نفس الوزن والقافية قال فى مطلعها:

هاجتك خالية القصور فبكيت بالدمع الغزير
وذكرت سكان الحمى ونسيت سكان القبور

واسترعى انتباهى أيضًا أن يخلو الكتاب من اسم المرحوم مصطفى صادق الرافعى صاحب نشيد «اسلمى يا مصر إننى الفدى» واسم الشاعر الكبير عباس العقاد صاحب النشيد القومى وفيه يقول: «إن رفعنا الرؤوس. فليكن ما يكون. ولتعش يا وطن».

واسترعى انتباهى كذلك ألا تجىء إشارة إلى الشاعر مصطفى لطفى المنفلوطى الذى خاطب الخديو عباس عقب عودته من الحج فقال:

قدوم ولكن لا أقول سعيد وملك وإن طال المدى سيبيد

وقد حكم على مصطفى لطفى المنفلوطى بالسجن ستة أشهر. وصحت نبوءة المنفلوطى فباد ملك عباس، وبادت أسرة محمد على برمتها!

ولم أجد فى الديوان بيتًا واحدًا من الشعر الوطنى الحديث. ولست أدرى كيف نذكر الشعر الوطنى دون أن نذكر مثل هذه الأبيات التى قيلت فى معركة القنال...

أنا إن سقطت فخذ مكانى. يا رفيق فى الكفاح
واحمل سلاحى... لا يرعك دمى يسيل من السلاح
وانظر إلى شفتى أطبقتا على هوج الرياح.
وانظر إلى عينى أطبقتا على نور الصباح..
أنا لم أمت.. أنا لم أزل أدعوك من خلف الجراح!

وكيف نذكر الشعر الوطنى دون أن نذكر هذه الأبيات فى ثورة ٢٣ يولية:

بلدى لا عشت إن لم أفتدى يومك الحر بيومى وغدى
نازفًا من دم أعدائك ما نزفوه من أبى أو ولدى
آخذ حريتى من غاصبيها سالبيها.. وبروحى أفتديها

يحضرنى الآن عشرات الأمثلة من الشعر الوطنى الحديث،

وهو شعر يعد من الناحية الفنية أقوى من شعر كثيرين عنى الأستاذ الرافعى بسرد أشعارهم وتاريخ حياتهم...

إن هذه الملاحظات السريعة لا تغض من قيمة الجهد الذى بذله أستاذنا الرافعى فى كتابه شعراء الوطنية، ولا أريد بما أبديته من ملاحظات أكثر من أن أحقق رغبته التى عبر عنها فى مقدمة كتابه بهذه الكلمات:

«إذا نبهنى القارئ إلى شاعر فاتنى الحديث عنه، ضمن شعراء الوطنية، فإنى على أتم الاستعداد لتدارك هذا النقص فى الطبعة التالية من الكتاب».

وهذه العبارة القصيرة، تنم على خلق عبد الرحمن الرافعى. خلق العالم الذى يبحث عن الحق والحقيقة، وقد تجلى هذا الخلق فى جميع المؤلفات التى أصدرها الرافعى، وفى مقدمتها «حقوق الشعب» و«الجمعيات الوطنية» وتاريخ الحركة القومية وعصر محمد على وعصر إسماعيل والثورة العرابية ومصر والسودان ومصطفى كامل ومحمد فريد وثورة ١٩١٩ وفى أعقاب الثورة المصرية.